الاستجابة البليغة للظلم: دراسة في مختارات من الأجوبة المسكتة في التراث العربي

The rhetorical response to Injustice: A Study of a sample of the silencing answers in the Arab Heritage

إعداد

أ.د/ عماد عبد اللطيف
Prof. Dr. Imad Abdel Latif
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب - قسم اللغة العربية- جامعة قطر

Doi: 10.21608/mdad.2025.407482

استلام البحث ٢٤ /١١ / ٢٠٢٤
قبول النشر ١٦ / ١٢ / ٢٠٢٤

عبد اللطيف، عماد (٢٠٢٥). الاستجابة البليغة للظلم: دراسة في مختارات من الأجوبة المسكتة في التراث العربي. ***المجلة العربية مـــــداد***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٩ (٢٨)، ٩٩ – ١٣٠.

http://mdad.journals.ekb.eg

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الاستجابة البليغة للظلم: دراسة في مختارات من الأجوبة المسكتة في التراث العربي

المستخلص:

يدرس البحث الاستجابة البليغة للخطابات السلطوية في عينة من الأجوبة المسكتة، مأخوذة من كتابين هما (الأجوبة المسكتة) لابن أبي عون، و(الهفوات النادرة) لابن هلال الصابئ. يفحص البحث أساليب نقد خطابات القهر السياسي، والعنصرية ضد السود والعبيد، والتمييز ضد المرأة، وتحقير اليافعين، والتنمر على ذوي الاحتياجات الخاصة، والتمييز في الألقاب، وخطاب النفاق. تُحاجُّ الورقة بأن المهمشين والمقهورين من الأسرى والعبيد وصغار السن والنساء في العينة المدروسة تمكَّنوا من نقد خطابات القهر والتمييز والعنصرية والتحقير التي تعرضوا لها، ومقاومتها، بوساطة إنتاج استجابات بليغة مضادة. يتحقق في المدونة المدروسة شرطان؛ (١) أن تشتمل على شكل من أشكال الظلم. (٢) أن تحتوي على استجابة بليغة. يتكسف البحث كيفية إنتاج هذه الاستجابات، وخصائصها، ووظائفها، وآثارها، مستعملة منهجية تدمج بين التحليل النقدي للخطاب المعني باستكشاف العلاقة بين الخطاب والسلطة، وبلاغة الجمهور المعنية بدراسة استجابات الجمهور للخطابات السلطوية.

يكشف تحليل الاستجابة البليغة في الكتابين عن أنها تشترك في سمات؛ منها أنها جميعًا استجابات عقلانية، تستند إلى محاجَّة رصينة. كما أنها موجَزة، مباشِرة، غير مشغولة بأن يكون القول جميلا قدر انشغالها بأن يكون القول فعالا. كذلك، فإنها تشترك في تجاهلها لبُعد مهم من أبعاد المقام التواصلي هو بُعد تفاوت السلطة بين المتكلم والمخاطَب. فهي تتجاهل أعراف التواصل وضوابطه التي تفرضها المجتمعات السلطوية على مخاطَبة العبد للسيد، والسجين للحاكم، والفرد العادي للإمبراطور، والصبي للشيخ، لا سيما الصمت، والخضوع، وعدم المخالفة. وبدلا من ذلك، تنحاز إلى ممارسة حرية القول، والصمود، والكرامة، وبلاغة التعبير عن الذات. وأخيرًا، فإن هذه الاستجابات تشترك في أنها تمنح منجزيها قوة استثنائية تمكنهم من قلب موازين القوة، في شكلٍ من أشكال الثأر بالكلمات.

الكلمات المفتاحية: الخطابات السلطوية، الأجوبة المسكتة، بلاغة الجمهور.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

Abstract:

This paper studies the rhetorical response to authoritarian discourses in the Arab tradition. I analyze a sample of the silencing answers taken from two books: (The Silencing Answers الأجوبة المسكتة) by Ibn Abi Aoun and (The Rare Lapses الهفوات النادرة) by Ibn Hilal Al-Sabi. The paper examines the rhetorical response to discourses of political oppression, racism against blacks and enslaved people, discrimination against women, belittlement of young people, bullying of people with special needs, and rhetoric of hypocrisy. I argue that the marginalized and oppressed people, including prisoners, enslaved people, children, and women in the examples studied, were able to resist the discourses of oppression, discrimination, racism, and denigration to which they were exposed, thanks to the ability to produce discursive counter-responses. To demonstrate this, I analyze the characteristics of rhetorical responses in the sample studied and their impact on the communication situations in which they were produced.

Keywords: authoritarian discourses, The Silencing Answers, "Rhetoric" of Audience.

. . .

مقدمة

يهدف ربطُ الاستجابة البليغة[١] بمقاومة المتلقين للخطابات السلطوية إلى مراجعة العلاقة بين البلاغة والأخلاق والسلطة. فقد كان وصف بعض الكلام والمتكلمين بالبلاغة يجري غالبًا بمعزل عن الأبعاد الأخلاقية للكلام وعن المسؤولية المجتمعية للمتكلمين. ولم يكن مستغربًا وصفُ خطابات تمارس أقصى أشكال التلاعب والتضليل بأنها بليغة على

[١] - صغتُ مصطلح "الاستجابة البليغة" أول مرة عام ٢٠٠٥. أُنظر: عماد عبد اللطيف، "بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، ضمن **السلطة ودور المثقف**، جامعة القاهرة، (٢٠٠٥)، صص. ٢١-٢٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الرغم من أننا ندرك أن أثرها الذي تنجزه مردود –في جُلِّه- إلى الخداع والتضليل. خلافًا لذلك، يربط مفهوم الاستجابة البليغة البلاغةَ بمقاومة إساءة استعمال السلطة على نحو جذري، فاستجابة المتلقين للخطاب تكون بليغة فحسب حين تقاوم مثل هذا الخطاب التلاعبي، أو الخطاب التمييزي الذي يرسخ تمييزات على أساس النوع أو العرق أو الجنس أو اللون أو غيرها، أو الخطاب الإقصائي الذي يسعى إلى استبعاد مخاطَبين محددين، لصالح مخاطَبين آخرين استنادًا إلى أشكال من إساءة استعمال السلطة.

تتسم الاستجابات البليغة بالتنوع؛ فقد تكون لفظيّة، أو غير لفظية، فردية أو جماعية، مادية أو افتراضية...إلخ. وينتج البشر يوميًا تنويعة ضخمة من العلامات التي تُعدُّ استجابات بليغة، مثل تعليق نقدي على خبر مشوَّه في صحيفة، أو لافتة تطالب بالحرية، أو صيحة إعجاب على خطاب نبيل، أو سؤال يكشف تلاعبًا، أو عبارة مدوَّنة على حائط تندد بالاستبداد، أو تعليق يفنِّد خطاب كراهية أو عنصرية، أو رسالة إلى صحيفة تنتقد سياسات تحرير تضليلية، أو هتاف في ملعب كرة قدم يقاوم خطابًا شوفينيًا متعصبًا، يميز بين الأفراد استنادًا إلى انتماءات كروية ضيقة، أو غيرها.

توصف الاستجابة بأنها بليغة أو غير بليغة استنادًا إلى غايتها ووظائفها. فالتصفيق البليغ، على سبيل المثال، هو التصفيق الذي ينجزه جمهور يعي أن الخطاب الذي يصفِّق له خطاب غير تلاعبي، تحرري، يتسم بالصدقية، ويدرك جيدًا أن إنتاجه لهذا التصفيق ليس تجليًّا لقهر أو لفساد ضمير أو لأي شكل من أشكال انحراف السلطة، بل هو فعل واع ونبيل. وإن لم يكن الأمر كذلك؛ كأن يكون التصفيق مأجورًا، أو محفزًا بالعدوى والتقليد دون وعي، أو مكرهًا قهرًا، إلى آخره، فإنه استجابة غير بليغة.

يُجري مفهوم "الاستجابة البليغة" تحويرًا مقصودًا في مفهوم "البليغ". فقد استُعمِل وصف "البليغ" لنعت الكلام الجميل أو المقنع أو المؤثر الذي ينتجه المتكلمون. لكن بلاغة الجمهور ترسِّخ تصورًا إضافيًا لما هو بليغ، بجعله قرين ما ينتجه المخاطبون من استجابات في أثناء تلقي الخطاب، في محاولة خلق توازن في علم البلاغة بين المتكلم والمخاطَب في الموقف البلاغي[٢]. وكما نصف خطابَ متكلمٍ بأنه بليغ، يمكننا وصف

[٢] - يمكن الرجوع إلى الأساس المعرفي والأخلاقي لهذه الدعوة في مقالة "بلاغة المخاطَب"، كما يمكن الرجوع إلى الأساس الفلسفي له في: عماد عبد اللطيف، "بلاغة الجمهور والمعارف

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

استجابة مخاطبٍ بأنها بليغة.

يرتبط وصف متكلم معين بالبلاغة عادةً بقدرته على تحقيق غايته من قوله، أو قدرته على إحداث تأثير في أنفس متلقية، أو بناء قوله بما يتفق مع وصف الكلام البليغ، بأن يشمل القول ما يُدرَك بأنه تجلٍ من تجليات القول "البليغ" مثل المجاز والإيقاع والحجج وغيرها. وتسعى بلاغة الجمهور إلى إحداث تغيير محدود في هذا التصور التقليدي للمتكلم البليغ، من خلال إضافة شرط آخر، وهو أن يكون خطاب المتكلم خاليا من أمراض الخطاب. وفي عبارة أخرى، لكي يكون المتكلم بليغًا يجب ألّا يتورط في ممارسة أي تلاعب أو قهر أو تمييز أو عنصرية أو غير ذلك من إساءات استعمال السلطة والخطاب. وتهدف بلاغة الجمهور إلى تطوير وعي الأفراد بمخاطر إساءات استعمال الخطاب؛ وتلفت الانتباه إلى أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إطلاق صفات البلاغة بمعزل عن الأبعاد الأخلاقية لها، بل يجب أن يكون الوصف بالبلاغة مرتبطًا كذلك بالوسائل المستعملة فيه، فليست غاياته أو آثاره ونتائجه هي التي تحدد ما هو بليغ فحسب، بل السبل المستعملة في إنجازها كذلك[٣].

الاستجابة البليغة، إذا، هي الغاية التي تسعى بلاغة الجمهور إلى الوصول إليها، مثلما أن الإقناع والتأثير هو الغاية التي تتوخى البلاغة التقليدية الوصول إليها. وإذا كان كل متكلم يستهدف الإقناع والتأثير والجمال، فإن كل مخاطب، وفق بلاغة الجمهور، عليه أن يسعى لإنجاز استجابات بليغة، تقاوم إساءات استعمال الخطاب والسلطة معًا.

لقد دُرِست الاستجابات البليغة في عينة متنوعة من الخطابات على نحو ما يظهر في فصول هذا الكتاب. وقد أخترتُ تحليل الاستجابة البليغة في التراث العربي من خلال عينة من الأجوبة المسكتة مأخوذة من كتابين فريدين في التراث العربي هما: **الأجوبة المسكتة** لابن أبي عون، و**الهفوات النادرة** لابن هلال الصابئ.

يقدم الكتابان حكايات موجزة بعضها تاريخي والآخر متخيّل. وتحتوي جُلُّ الحكايات موقفًا بلاغيًا يتكون من متكلم ومخاطَب، يتبادلان حوارًا على مرأى ومسمع

النقدية: دراسة في خصائص النقد من الفضيلة إلى الاستجابة"، **مجلة العلامة**، مج. ٦، ع. ١٣، (٢٠٢١)، صص.(٩-٣٠).

[٣] - عبد اللطيف، "بلاغة المخاطب"، مرجع سابق، صص. (٧- ٣٦).

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

جمهور غالبًا، وفي سياقات ثنائية أحيانًا. جمعتُ عينة التحليل المدروسة في هذه المقالة بعد فحص لجميع الحكايات المتضمنة في الكتابين، واستبعدتُ ما لا ينطبق عليه تحديدي المفهومي للاستجابة البليغة. وقد ركزتُ على الاستجابة البليغة للخطابات التي تمارس قهرًا أو تمييزًا استنادًا إلى لون البشرة أو النوع (المرأة) أو العبودية، أو الخطاب التحقيري الموجه لصغار السن، والمعاقين، وغيرهم. وقد استبعدتُ القصص المتشابهة، مركزًا على اختيار أفضل التمثيلات للاستجابات المدروسة.

لم أُعنَ في هذه المقالة بالتثبت التاريخي من حدوث القصص المدروسة. فلم أدقق فيها من الناحية التاريخية، ولم أقارنها بمصادر أخرى. إذ لم أكن معنيًا بما إن كانت القصة قد وقعت بالفعل أم لا. وعاملتُ القَصَص الذي يبدو واقعيًا مثل الأمثولات الخرافية في أهليتها للتحليل من منظور الاستجابة البليغة. وذلك انطلاقًا من أن غرض البحث فهم كيف تُنتج الاستجابات البليغة في التراث الأدبي السردي، سواء أكان تاريخيا أم متخيلا. وفي الحقيقة، فإن أكثر الأعمال الخرافية إغراقًا في الخيال قد تكون مجرد غطاء للتعبير عن واقع مُؤلم يُعاش كل يوم، ولا يمكن الحكي عنه إلا تحت هذا الغطاء.

لقد دُرِست الأجوبة المسكتة من منظورات متنوعة. فقد دَرَست منيرة فاعور أسلوب الحكيم في عينة من الأجوبة المسكتة مأخوذة من أجوبة الزهاد[٤]. ونظَّر محمود المقداد لنوع الأجوبة المسكتة، راصدًا أحوال نشأتها، ومحددًا أهم خصائصها الأسلوبية، وغاياتها[٥]. كما فحص عبد اللطيف الأجوبة المسكتة بوصفها واحدة من أنواع بلاغية قليلة اهتمت باستجابة المخاطَب[٦]. وفحص إيهاب المقراني الأجوبة المسكتة من منظور حجاجي ثقافي، مركزًا على باب الجوابات الهزلية من كتاب ابن أبي عون **الأجوبة**

---

[٤] - منيرة فاعور، "بلاغة الأجوبة المسكتة: الأسلوب الحكيم نموذجًا"، **مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية**، مج. ٣٠، ع. ٣-٤، (٢٠١٤)، صص. (١١٣–١٣٩).

[٥] - محمود المقداد، "الأجوبة المسكتة في العصر الأموي: محاولة تنظير وتأصيل لنوع أدبي نثري في مرحلة التأسيس"، **التراث العربي**، ع. ١٣٨-١٣٩، (٢٠١٥)، صص. (٢٧-٤٨).

[٦] - عماد عبد اللطيف، "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ضمن صلاح الحاوي وعبد الوهاب الصديقي، **بلاغة الجمهور: مفاهيم وتطبيقات** (العراق: دار شهريار، ٢٠١٧)، صص. ٢٠-٢١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

المسكتة[٧].

كذلك درست لطيفة ذويب المقاصد التداولية في خطاب "الأجوبة المسكتة" مركزة على فحص عناصر التواصل، والمحاجَّة، والفعل الكلامي والقصد التوجيهي، والمقاصد الموضعية[٨]. كما درستْ ناهضة عبيد ومحمد عبد أسلوب التكرار في الأجوبة المسكتة، وفحصا أنواع التكرار اللفظي والمعنوي في الكتاب، ووظائفه البلاغية[٩]. في حين درس علي المدني الحجاج في الأجوبة المسكتة، وفحص كريم علوي الأجوبة المسكتة من منظور اللسانيات التداولية، مركزًا على ما تنجزه الأجوبة المسكتة من أفعال كلام، وما تتضمنه من حجج، وما تشتمل عليه من تضمينات[١٠].

تُعدُّ الدراسة الحالية تطويرًا للإشارة الموجزة إلى الأجوبة المسكتة في دراسة "ما الذي تقدمه بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، فهي تُعالِج الأجوبة المسكتة من منظور بلاغة الجمهور؛ بهدف استكشاف الكيفية التي يتمكن بها الأفراد العاديون من مقاومة خطابات الظلم الاجتماعي والسياسي التي يتعرضون لها، وهي بذلك تقدم منظورًا جديدًا للأجوبة المسكتة يُسهم في الكشف عن خصائصها ووظائفها.

يدرس المقال مختارات من الأجوبة المسكتة، يتحقق فيها شرطان: أولا؛ أن تشتمل على شكل من أشكال الظلم الخطابي، أي أمراض الخطاب. ثانيا؛ أن تحتوي على استجابة بليغة بالمعنى الذي قدمتُه في التأسيس النظري للدراسة. وتشتمل المختارات على أجوبة مقاومة لأمثلة من خطابات القهر، والعنصرية، والتمييز، والتحقير، والنفاق. وسوف أقوم بتقديم الاستجابات المختلفة لهذه الخطابات مركزًا على كيفية إنتاج الاستجابة،

---

[٧] - إيهاب المقراني، "آليات الخطاب الحجاجي في الأجوبة المسكتة: باب الجوابات الهزلية بين النص والنسق"، **مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد**، ع. ١٥، (٢٠٢٠)، صص. (١٣-٩٧).

[٨] - لطيفة ذويب وإبراهيم إيدير، "المقاصد التداولية في الخطابات الساخرة: كتاب الأجوبة المسكتة لابن أبي عون أنموذجًا"، **رسالة ماجستير غير منشورة** (الجزائر: جامعة قاصدي مرباح/ورقلة، ٢٠١٩).

[٩] - ناهضة عبيد ومحمد عبد، "إيقاع التكرار أسلوبيًا في الأجوبة المسكتة في كتاب ابن أبي عون"، **مجلة مركز دراسات الدوحة**، ع. ٥٩، (٢٠٢٠)، صص. (٣٤٣-٣٨٢).

[١٠] - كريم علوي، "الأجوبة المسكتة: دراسة في ضوء اللسانيات التداولية"، **مجلة كلية التربية للبنات**، مج. ٣١، ع. ١، (٢٠٢٠)، صص. (١٣٥-١٥١).

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وخصائصها، ووظائفها، وآثارها.

أولا: الاستجابة البليغة للخطاب العنصري التحقيري

يكشف التراث العربي عن انتشار خطابات تمارس أشكالا متنوعة من العنصرية استنادًا إلى العرق أو الجنس أو النسب أو الدين أو غيرها. وكثيرًا ما تمارَس هذه العنصرية في الخطاب دون مقاومة خطابية، لكنها تواجه أحيانًا باستجابات مقاوِمة. ويشكل فحص كيف تُنتَج الخطابات العنصرية في التراث العربي وكيف تُقاوَم خطابيًا تحديًا معرفيًا مهمًا. وسوف أحاول تقديم مساهمة في هذا السياق، تتصل بكيفية مقاومة الخطاب العنصري بوساطة الاستجابة البليغة، محللا حوارًا شديد البساطة، جرى بين أحد كبار ملوك بني أمية هو هشام بن عبد الملك بن مروان (٦٩١-٧٢٣هـ)، وبين تابع من التابعين هو زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم جميعًا. فبحسب الحسن بن شهاب الحنبلي، استدعى هشام بن عبد الملك زيدا بن علي بن الحسين وهو مكبل بالحديد، ودار بينهما هذا الحوار:

١. **"هشام**: يا ابن السوداء!

زيد: صبغة جلدها، وخلقة ربها.

هشام: يا ابن العجانة الخبازة.

زيد: مهنة أهلها وخدمة بيتها.

هشام: يا ابن الزانية.

زيد: إن كنت صادقًا فغفر الله لها، وإن كنت كاذبًا، فغفر الله لك.

"فأُسْقِطَ هشام، وعلم أنه أساء، وخجل، ونكس رأسه، وأُمِر به (أي زيد) فأعيد إلى سجنه".[١١]

يتضمن حوار هشام "الملك" مع زيد "السجين" ثلاثة أشكال من إساءة استعمال الخطاب؛ الأول خطاب عنصري تجسَّدَ في عبارة "يا ابن السوداء" التي تصنف بوصفها

[١١] - غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصابئ، **الهفوات النادرة**، تحقيق صالح الأشتر (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٧)، ص. ٣٧٩، الهفوة ٣٨٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

خطابًا عنصريًّا يرسخ التمييز بين الأشخاص استنادًا إلى لون جلدهم. وإزاء هذا الخطاب العنصري أنتج زيد استجابة بليغة تنطوي على نقد جذري للخطاب العنصري في عمومه، بواسطة الإشارة إلى أن لون الجلد أمر لا يَدَ للمرء فيه، بالإضافة إلى أنه أمر شكلي، فهو مجرد صبغة للجلد. والشكل الثاني من إساءة استعمال الخطاب في هذا الحوار الموجز هو إنتاج خطاب تحقيري للبشر استنادًا إلى عملهم ومهنِهم. فعبارة هشام "يا ابن العجَّانة الخبَّازة"، هدفها التقليل من شأن زيد بواسطة تعييره بأن أمّه كانت تعمل بيدها خدمةً لبيتها، فكانت تصنع الخبز لأبنائها بيديها. ومن الجلي أن هذا التحقير يستند إلى تصور يحتقر المرأة التي تصنع بيدها طعام أهلها، وهو تصور استعلائي مغلوط. وقد كان رد زيد استجابة بليغة مثلى؛ إذ قال: "مهنة أهلها، وخدمة بيتها". فإذا كان الخطاب السلطوي يسعى إلى تحقير المخاطَب استنادًا إلى قيام أهله بعمل يدوي يُدرَك بأنه مُحتقر من بعض الطبقات، فإن الرد يأتي في شكل جواب مسكت هو أن هذا العمل شريف، ونافع، وكاشف عن عطاء المرء لأهله وأسرته. أما الشكل الثالث فهو الأكثر إساءة للسلطة والخطاب معًا، إذ يشتمل على إهانة المخاطَب بواسطة سب أمه، واتهامها في عرضها، وهو الشكل الأكثر وضَاعة للظلم. فقد شتم هشام "الملك" زيدًا "السجين" قائلا: "يا ابن الزانية"، فجاء ردّ زيد في غاية الحكمة، ويكاد يكون أيقونة للاستجابة البليغة الذكية القاصمة "إن كنت صادقًا فغفر الله لها، وإن كنت كاذبًا، فغفر الله لك".

هذا الحوار البسيط الذي ربما لم يستغرق الدقيقتين يقدم درسًا بليغًا في الاستجابة البليغة. فالمتكلم مالك زمام السلطة والخطاب معًا يوجّه الحديث الوجهة التي يريدها، ويمارس سلطته الفجة على الكلام وعلى المخاطَب معًا. لكن المخاطَب لا يستسلم للخطاب السلطوي العنصري التمييزي التحقيري الذي يتعرض له، على الرغم من أنه مكبَّل بالحديد. وعلى العكس من ذلك، يقدِّم استجابات بليغة مضادة للخطاب السلطوي، تقلب الحدث الخطابي رأسًا على عقب، وتغيِّر من إدراك الحاضرين للعلاقة بين المتكلم والمخاطَب، وصورة كل منهما. ففي حين تكون علاقة السلطة قبل مفتتح الحدث الخطابي غير متكافئة، بسبب وضعية المتكلم والمخاطَب (الملك والسجين في حالة هشام وزيد) فإن الاستجابات البليغة تمكن الطرف الأضعف من قلب علاقات السلطة. وبانتهاء الحدث الخطابي ينجلي للحاضرين أن الطرف الأقوى في هذا الحوار هو المخاطَب المقيَّد بالحديد الذي يحافظ على رأسه مرفوعًا، في مقابل رأس الملك "المنكس" المنقوع في الخزي

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

بسبب إساءة استعمال السلطة والخطاب معًا.

قريب من هذا المثال، حوار آخر وقع بين هشام وزيد أيضًا، لكن قبل سجنه. ينقله هذه المرة ابن أبي عون في كتاب **الأجوبة المسكتة**، أورده بنصّه في ما يأتي:

٢."قال هشام بن عبد الملك لزيد بن علي: بلغني أنك تريد الخلافة، ولا تصلح لها لأنك ابن أَمَة. فقال زيد: قد كان إسماعيل ابن أمة، وإسحق ابن حرة، فأخرج الله من صلبه (إسماعيل) خير ولد آدم [يقصد محمّدا صلعم]. قال له هشام: قم. قال: إذًا لا تراني إلا حيث تكره. فلما خرج (زيد) من الدار قال: ما أحبَّ أحد الحياة إلا ذلَّ"[١٢].

في الحوار السابق، يلجأ هشام بن عبد الملك إلى إنتاج خطاب تمييزي لمواجهة سعي زيد بن علي إلى تولي الخلافة. فهو يحاجُّ زيدا بأنه لا يصلح للإمساك بمقاليد الحكم لأن أمَّه أمَة، أي عبدة. بُنيت هذه الحجة على مقدمة محذوفة هي أن أبناء الإماء لا حق لهم في الخلافة. وهي حجة تمييزية لأنها تُعلي من شأن مَنْ ولد لأبوين حرَّين على حساب من ولد لأمٍّ معتوقة. وهو تمييز عرقي، ينتمي إلى فترة مؤسفة في تاريخ البشرية، عرفت ممارسات بيع البشر وشرائهم. وقد جاءت استجابة زيد لحجة هشام بليغة مُسكِتة، فقد قدَّم قياسًا تمثيليًّا، قارن حالَه وحال هشام بحال السيدة هاجر، أم إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام وحال السيدة سارة، زوجي إبراهيم عليه السلام. فقد كانت السيدة هاجر، جدة النبي (ص)، أمَةً، مثل أمِّ زيد. وتزداد قوة الحجة في أنها غير قابلة للتفنيد أو النقد بفضل رمزيتها التاريخية والدينية. وتعظم قوتها بالنظر إلى أنها تتضمن شكلا من الفخر الذاتي لزيد بن علي، فهو نفسه حفيد النبي ﷺ، بما يعني أنه ينتمي إلى السلالة التي يفخر بها، ويحتج بها في الآن نفسه. ولم يكن غريبًا أن تكون استجابة زيد هادئةً عقلانيةً، مثلما يجب أن تكون عليه الاستجابة البليغة للخطابات التضليلية التمييزية. ولعل ردة فعل هشام على استجابة زيد يكشف عن قوة حجة زيد، فهو لم يعقب على كلامه، بل أمره بالقيام من مجلسه. قائلا عبارة واحدة: "قم". وهي عبارة تؤذن بإغلاق باب الحوار الذي أدرك هاشم أنه خسر فيه. وقد أدرك زيد أن الأمر بمغادرة المجلس هو قطع لمسار الحوار، لذا أعلن أنه فهم الرسالة، وقال عبارته الصريحة "إذًا لا تراني إلا حيث تكره"، يقصد ساحة

[١٢] - إبراهيم بن محمد بن أبي عون أحمد، **الأجوبة المسكتة**، تحقيق مي أحمد يوسف (القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٦)، ص. ٦٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الحرب. وأتبع قيامه بعبارة تكشف عن إدراكه للعلاقة بين الخوف والذلّ، فقال قولته التي تصلح أن تكون حكمة خالدة: "ما أحب أحد الحياة إلا ذلّ". وكأنه يقارن في هذه العبارة بين اختياره مواجهة الخطاب التمييزي الذي سعى إلى إذلاله بواسطة التصدي لقائله بالاستجابة البليغة، وما نتج عنها من انفتاح الباب أمام أبواب الصراع، والاختيار الذي رفضه وهو قبول العبارة الجارحة لهشام، طلبًا للسلامة، وإن اقترنت بالمذلة.

هذا الإعلاء من قيمة الكرامة في مواجهة خطاب الإذلال نصادفه في استجابة أخرى بليغة في كتاب **الهفوات النادرة**، إذ يروي ابن هلال الصابئ حوارًا بين وزير وموظف لديه، فقد "خاطب الوزير أبو القاسم المغربي أحد العمال[١٣]، واحتدَّ عليه قائلًا: لأتقدمن بصفعك، فرد: بل نترك العمالة ولا تصفعنا ولا نصفعك، فأطرق المغربي، وأدرك خطأه، فبقي ميتًّا ثم خرج متحاملًا"[١٤].

يمارس الوزير في هذا الحوار عنفًا خطابيًا على الموظف التابع له، ويتجلى ذلك في عبارة "احتدَّ عليه" التي تحمل دلالة تفاوت السلطة بين الطرفين؛ إذ لا يقع الاحتداد إلا من طرف يأمن عاقبته غالبًا. وأخذ هذا الاحتداد اللفظي شكل تهديد لغوي بالإساءة المادية "لأتقدمنَّ بصفعك". والصفع واحد من أكثر أشكال الإساءة الجسدية مهانة في الثقافة العربية. لذا جاءت استجابة الموظف سريعة حاسمة في شكل فصم للعلاقة الوظيفية التي أعطت الوزير سلطة إصدار هذا التهديد المهين، فقال: "بل نترك العمالة ولا تصفعنا ولا نصفعك". وتكشف العبارة عن إدراك الموظف لطبيعة العلاقة بينه وبين المتكلم، وإدراك أن التفاوت في السلطة المهنية هو الذي سوَّل للوزير اقتراف هذه الإساءة، فما كان إلا القضاء على هذا التفاوت بالتحلل من الاستعلاء السلطوي الذي فرضته المهنة؛ لتعدِّل تلك الاستجابة البليغة ميزان العلاقة بين الطرفين، وتصبح متكافئة. ونستطيع أن نفهم ردة فعل الوزير على استجابة الموظف بالنظر إلى معرفته بما يترتب على العلاقة الجديدة. فقد "أطرق"؛ أي صمت، وأطرق رأسه أي خفضها، وخفض الرأس علامة من علامات افتقاد السلطة في المجتمعات السلطوية. ثم يصف الراوي حال الوزير بعد أن أدرك خطأه، وأدرك أن استجابة الموظف قد أحدثت توازنًا في كفة السلطة معه. فقد "بقي ميتًا،

[١٣]- العامل هو المسؤول عن قرية أو مقاطعة صغيرة.
[١٤] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ١٨٢، الهفوة ١٧٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ثم خرج متحاملا" وهو ما يشير إلى حالة الوهن الشديد التي أحدثتها استجابة الموظف.

ثانيا: الاستجابة البليغة لخطاب القهر

خطاب القهر قرين خطاب الاستبداد. وأقصد بخطاب القهر النصوص والخطابات التي تسعى إلى الإخضاع الإكراهي للمخاطَب للقيام بأفعال أو أقوال بغير إرادته على نحو جذري. ويتجلى خطاب القهر في سياقات شتى، يُسلَبُ فيها المخاطَبون حرية الاستجابة وفقًا لإرادتهم الحرة، ويُنتجون استجابات تتعارض كليًّة مع ما كانوا ليقدموه لو أنهم بمأمن من سيف القهر المسلَّط على إرادتهم. والاستجابة المقاومة للقهر هي تلك التي تكسر حلقة القهر، وتتيح لمن يقوم بها التعبير عن إرادته الحرة في مواجهة خطاب القهر. ويشتمل التراث العربي على مئات الأمثلة على هذه الاستجابات البليغة المقاوِمة لخطاب القهر. ويبدو هذا أمرًا متوقعًا في مجتمعات عانتْ من القهر حتى غدا جزءًا من طبائع الحياة فيها. وسوف أُحلِّل في ما يأتي مثالين لتلك الاستجابات.

١-الحجَّاج والمصلِّي البليغ

يرجع أول المثالين إلى فترة تُعدُّ تجسيدًا للقهر، وهي فترة تولي الحجاج بن يوسف الثقفي حكم العراق. ويشمل حوارًا بين الحجاج وواحد من المصلين المستمعين لخطبة يوم الجمعة. وسوف أنقل الحوار كما قدّمه صاحب **الأجوبة المسكتة**:

٣."خَطَب الحجاج يوم جمعة فأطال، فقال له رجل: إن الصلاة لا تنتظرك، وإن الله لا يعذرك. فأمر بحبسه، فجاء أهلُه فشهدوا بأنه مجنون. فقال [الحجاج]: إن أقرَّ (بجنونه) أطلقتُه. فقال [السجين]: لا والله، لا أنحل الله فعلَ ما لم يفعل"[١٥].

تتكوّن القصة من مشهدين حواريين. تدور وقائع الأول في المسجد، إذ يقاطع مصلٍ، غير مذكور الاسم، خطبة الحجاج، منبهًا إياه إلى تجاوز وقت الصلاة "إن الصلاة لا تنتظرك"، ومحذِّرًا إياه من غضب الله "وإنَّ الله لا يعذرك". والملاحظ أن الرجل استعمل حجتين دينيتين في إقناع الحجاج بإنهاء خطبته. لكن فعل المقاطعة في حد ذاته يمثل تحديًا لسلطة رجلٍ كان نعتُه الأشهر "السفَّاك السفَّاح"؛ لكثرة ما أراق من دماء

[١٥] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٧١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

خصومه[١٦]. وكما هو متوقع، لم يَرُد الحجَّاج على حجة الرجل، بل أمر بحبسه.

يبدأ المشهد الثاني بعبارة "فجاء أهله" التي تشير إلى العجلة في سعيهم إلى تخليص ابنهم من فك الحجَّاج. وكان ادعاء جنون الرجل هو المخرج الذي بدا لهم نافعًا. وقد قَبِل الحجاج إطلاق سراح الرجل إن أقرَّ بجنونه. فإقرار الرجل بجنونه يرسِّخ سلطة الحجاج القاهرة بوساطة تصوير من يقاطعه بأنه مجنون. وأن أي عاقل لن يجرؤ حتى أنْ ينبّهه إلى فوات وقت الصلاة، أو أن يخوّفه عقاب الله. كما أن إقرار المرء على نفسه بالجنون وهو عاقل، من أقسى درجات قهر الرجال، إذ يشهد الرجل على نفسه بأنه فاقد للعقل. وهي شهادة تُعدُّ تجليًا فجًا للقهر، بما تعنيه من إكراه المرء على أن يدَّعي على نفسه أنه فاقد للرشد والعقل والأهلية. علاوة على ذلك، يتضمن هذا الإقرار مفارقةً، فالحجاج يدرك أنه لا يشهد مجنون على نفسه بالجنون. فالإقرار بالجنون فعلٌ عاقل. ولم يكن طلب الحجاج من الرجل الإقرار بجنونه إلا إمعانًا في إذلال الرجل وقهره، بأن يقوم بفعل مجنون، هو الإقرار على نفسه كذبًا بالجنون. وقد أدرَك الرجل هذا فأبى أن يذعن لخطاب القهر، الممثَّل في التهديد بالسجن.

استعمل الرجل صيغة حاسمة في رفض الادعاء على نفسه بالجنون، فقد قدَّم أداة النفي "لا"، وأتبعها بالتأكيد بالقسم "والله"، ثمَّ أورد حجَّة رفض حاسمة، تجعل ادعاءه على نفسه بالجنون ادعاء على الله عز وجل نفسه "لا أنحل الله فعل ما لم يفعل". هذه العبارة القصيرة تمثِّل أبلغ استجابة على خطاب القهر، فهي تواجه هذا الخطاب وتتحدّاه بواسطة حجج حاسمة لا يستطيع حتى السفاك السفاح مواجهتها. فالحجة المستعملة في رفض الادعاء على الذات بالجنون تمارس نقدًا مستترًا للحجاج نفسه، بأنه "ينحل الله فِعلَ ما لم يفعل"، بإصراره على أن يدَّعي الرجل على نفسه بالجنون على الرغم من أن الله عز وجل لم يكتب عليه الجنون.

لم تذكر رواية ابن أبي عون لهذه القصة ما آل إليه حال المصلِّي الشجاع؛ أأطلقه الحجاج أم سجنه؟ لكنها نقلت لنا درسًا بليغًا في مقاومة خطاب القهر بواسطة مزيج من الصمود والذكاء. كما قدَّمت لنا مثالا للاستجابة غير البليغة للقهر، كما تمثلت في شهادة

[١٦] - منصور عبد الحكيم، **الحجاج بن يوسف الثقفي: طاغية بني أمية** (القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩).

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أهل الرجل عليه بالجنون. فقد ارتضوا مذلّة أنفسهم وابنهم بأن شهدوا عليه كذبًا بالجنون، على أمل إطلاق سراحه. ويبدو هذا -للأسف الشديد- متوقّعًا في مجتمعات ينسحق فيها العاقل بين مطرقة خطاب القهر، وسندان خطاب الخنوع، حتى توشك أجيال كاملة أن تدَّعي على نفسها بالجنون؛ لأنها طالبت يومًا بحقها في الحرية والكرامة والعدل[١٧].

٢- سخرية الجمل المصري من جور السلطان

يعدّ المثال الثاني للاستجابة البليغة للقهر أمثولة على لسان حيوان، وقد أوردها ابن أبي عون في آخر صفحات كتاب **الأجوبة المسكتة**:

٤."نُظِر إلى الجمل المصري يعدو من خوف، فسُئل عن عَدْوِه، فقال: سُخِّرت البغال. فقيل له: فأنت، لمَ تهرب؟ قال: أخاف من جور السلطان"[١٨].

أول ما يلفت الانتباه في هذه القصة وصف الجمل بـ"المصري"، وفي ذلك تحديد لهوية الجمل من جهة، والمكان الذي تدور فيه حوادث القصة الرمزية من جهة أخرى. وعلى الرغم من أن القصة خرافية، تنتمي إلى أمثولات الحيوان، فقد اختار مؤلِّفُها مصرَ مكانًا لحوادثها. وهو اختيار تبرره الصورة النمطية لمصر في المخيلة العربية بأنها بلد الغنى والذُّل[١٩]. وتتناول القصة الرمزية حالة واقعية من حالات إساءة استعمال السلطة هي السُخرَة التي تعني الإكراه على القيام بأعمال شاقة دون أجر بفعل قهر غاشم.

توظف الأمثولةُ السخريةَ أداةً لمقاومة ظلم السلطة وبطشها. فهي تسخر من جهل السلطة المتجسد في عدم قدرة أفرادها على التمييز بين البغال والجمال. لكن هذه السخرية المُرة، تُغلِّفها حقيقة أكثر مرارًا هي "جور السلطان" بحسب نص القصة. ومن ثمَّ، فإن

---

[١٧] - أكتبُ هذه الأسطر وفي ذهني الضغوط التي تعرض لها بعض منْ تبرؤوا من ثورة يناير ٢٠١١ تحت وطأة قهر يتجاوز في وطأته وشروره قهر الحجاج في الزمن البعيد.

[١٨] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٢٢٩.

[١٩] - من العبارات السائرة الشائعة ما رواه ابن عساكر، قال: "قال السخاء: أريد اليمن فقال حسن الخلق: أنا معك. وقال الجفاء: أريد الحجاز فقال الفقر: وأنا معك، وقال البأس: أريد الشام فقال السيف: وأنا معك. وقال العلم: أريد العراق فقال العقل: وأنا معك. وقال الغني: أريد مصر فقال الذل: وأنا معك. فاختر لنفسك يا أمير المؤمنين". أنظر: محمد بن مكرم بن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق مأمون الصاغرجي وأحمد حمامي ورياض مراد (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤)، مج. ١، ص. ٣٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الأمثولة تقدِّم نقدًا قاسيًا لجور السلطة وجهلها من ناحية، وتحذيرًا لمن يتعاملون معها من أثر هذا الجور والجهل فيهم. وتدعوهم إلى الفرار من قبضتها، إذا تيسّر لهم ذلك. وتستمد هذه الاستجابة الساخرة لخطاب الجور الباطش قدرًا من فعاليتها من قابليتها للتوظيف في سياقات متنوعة عبر أزمنة مختلفة.

ثالثا: الاستجابة البليغة لخطاب العبودية

العبودية وصمة عار في تاريخ البشرية قديمه وحديثه وراهنه؛ إذ ينطوي على سلب بعض البشر إنسانيتهم، والتعامل معهم كممتلكات. ومن الطبيعي أن تُنتج العبودية خطابات شائنة تجاه المستعبدين، تحتقرهم، وتقلل من إنسانيتهم. ومع ذلك، فإن تفاوت السلطة بين العبد والسيّد لم يَحُل دون إنتاج العبيد استجابات بليغة ضد بعض هذه الخطابات التحقيرية، وقد ذكر صاحب الأجوبة المسكتة واحدة من هذه الاستجابات في ما يأتي:

٥."كان ابن عباس متوكئًا على عكرمة، فقال له رجل: من هذا يا أبا العباس؟ قال: هذا مولاي. فانتزع عكرمة يده، قال: قال الله عز وجل: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، (الأحزاب: ٥) ما دعوتني بأبي وأنت تعرفه، ولا بالإخاء وقد قدّمه الله على الولاء"[٢٠].

يتضمن النص حوارًا بين الصحابي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت. ٦٨هـ)، والتابعي عكرمة بن عبد الله البربري المدني (ت. ١٠٥ هـ)، وكلاهما عالِم محدِّث. وكان عكرمة مولى عبد الله بن عباس، وظل في خدمته حتى توفي، فأعتقه ابنه علي بن عبد الله بن عباس.

يقدّم النص السابق مثالًا للاستجابة البليغة لخطاب العبودية. فابن عباس عرَّف عكرمة لمن سأل عن هويته بوساطة السلطة التي يمتلكها عليه، وهي كونُه عبدًا له (مولَى من مواليه). وقد استجاب عكرمة لهذا الوصف بالعبودية، بواسطة فعلين أولهما مادي، والآخر خطابي. الفعل المادي هو نزع يده غضبًا من ابن عباس. ويبدو أنَّ الحدث جرى أثناء سيرهما معًا، فقد كان ابن عباس متَّكئًا على يد عكرمة. ولنا أن نتوقع الأثر الذي

[٢٠] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٨٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

يُحدثه نزع عكرمة يده من يد ابن عباس، وهو يتكئ عليها واقفًا. وما قد يترتب عليه من فقدان لتوازن ابن عباس.

أما الاستجابة الخطابية فهي تقريع من عكرمة لسيده، اتخذ شكل حُجّة نصية مضادة لما أنتجه ابن عباس من خطاب يُقلّل من شأن عكرمة. فقد تلا عكرمة قرآنًا يأمر المسلمين بدعوة الموالي بأسمائهم، ثم أسماء آبائهم، ثم كلمة (أخي). وأتبع الآية بخطاب تقريعي يقلب العلاقة بين ابن عباس وعكرمة على مستوى الخطاب على الأقل. فقد قال عكرمة (ما دعوتني بأبي وأنت تعرفه، ولا بالإخاء وقد قدَّمه الله على الولاء). وفي العبارة لوم وعتاب مباشرين، ونقد ضمني لابن عباس بعدم العمل بأمر الله تعالى المذكور في القرآن الكريم. ويزداد وقع هذا النقد الضمني إذا عرفنا أن ابن عباس ربما كان أهم وأشهر مفسري القرآن والعارفين به في زمنه، فقد كان يُدعى حبر الأمة وترجمان القرآن[٢١].

تستند قوة حجة عكرمة إلى صعوبة تفنيدها، فهي تستند إلى نص قاطع من القرآن الكريم. فبفضل المعرفة التي حصَّلها عكرمة استطاعَ قلب علاقة السلطة بينهما، فارضًا علاقة نديَّة على مستوى الخطاب، بواسطة دعوته باسمه واسم أبيه، أو على الأقل علاقة المؤاخاة في الدين. وهذا ملمح آخر من ملامح الاستجابة البليغة التي تستمد قوتها من المعرفة التي يحوزها صاحبها حتى لو كان عبدًا.

رابعا: الاستجابة البليغة للتمييز ضد المرأة

تعرضت النساء لأشكال متنوعة من خطابات التمييز والتنمر على مدار تاريخ طويل. وكان موضوع تبوؤ المرأة للمناصب القيادية، ولا سيما الإمارة والملك، أرضيةً خصبةً لهذه الخطابات. وأحلِّل في ما يأتي مثالًا دالا للاستجابة البليغة المقاومة لخطاب التمييز ضد المرأة في ما يتعلق بقدرتها على تولي الوظائف الكبرى.

يروي ابن أبي عون هذا الحوار بين معاوية بن أبي سفيان ورجل من أهل اليمن:

٦."معاوية بن أبي سفيان: ما كان أجهلَ قومك حين ملَّكوا عليهم امرأة! **الرجل اليمني**: أجهلُ من قومي قومُك الذي قالوا حين دعاهم رسول الله (ﷺ) ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا

[٢١] - محمد مهدي الموسوي، **موسوعة عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن** (قُمْ: مركز الأبحاث العقائدية، ٢٠٠٧).

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢)، أَلَا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه؟!"[٢٢].

يبدأ الحوار بعبارة تهكمية اتهامية يوجّهها معاوية لرجل من اليمن مستعملًا مزيجًا من الأساليب التركيبية الداعمة لدلالة التحقير والاستعلاء. فقد استعمل التعجب الاستنكاري "ما كان أجهل"، معزَّزًا بصيغة "أفعل" من كلمة "جاهل" التي تُفيد الوصول إلى أقصى درجة من حيازة الصفة على سبيل المبالغة. ولم يشر إلى الملكة بلقيس باسمها، وإنما دعاها بجنسها "امرأة"، وهو تنكير يهدف إلى تكثيف التنقيص والتحقير. كما استعمل ضمير المخاطب في المحاورة لدعم وطأة الشعور بالاستعلاء على الرجل اليمني. إذ كان بمقدور معاوية أن يقول "ما كان أجهل أهل اليمن حين ملَّكوا عليهم امرأة"، لكنه اختار مجابهة الرجل بالاتهام بالجهل مستعمِلا ضمير الخطاب وكلمة (قومك) التي تستدعي مشاعر الانتماء القبلية القوية لدى أهل الجزيرة العربية، وتُعرِّض بإشارة خفية بتاريخ اليمنيين الذين يُدركون أنفسهم على أنهم أصحاب ملك وحضارة.

إزاء هذا الخطاب التمييزي التحقيري يستعمل الرجل اليمني استراتيجية مركَّبة، تمزج بين الاستدراج والمجابهة؛ فهو يستدرج معاوية بعدم مخالفته في رأيه، فهو لم يقل "قومي ليسوا بجهلاء لأنهم ولَّوا عليهم الملكة بلقيس"، بل استعمل عبارة "أجهل من قومي قومُك"، ليبدو مؤيدًا لمعاوية في قوله، بما يسمح له بأن يقدم خطاب المجابهة الحاسم الذي ينطوي على نقد ضمني لتمييز معاوية ضد المرأة، ممثَّلةً في الملكة بلقيس، وضدَّ من يعتقدون في أهليتها للحكم، ممثَّلين في أهل اليمن. وذلك في مقابل إنتاج خطاب صريح، يحقِّر من معاوية وقومَه، بواسطة استعمال جملة خبرية قاطعة هي "أجهل من قومي قومُك".

تكتسب استجابة الرجل لنقد معاوية قوتها من أسلوب الحجاج الذي استعمله للبرهنة على صحة قوله بأن قوم معاوية أجهل من قومه. فقد اختار المقارنة بين حدثين تاريخيين، يتشابهان في طبيعتهما، ويختلفان في طريقة التعامل معهما، ليبرهن بأن قوم معاوية أجهل من قومه. والحدث الأول هو ردُّ قوم معاوية على دعوة نبي الله محمد لهم بالدخول في دين الله. والثاني رد قوم الرجل اليمني على دعوة نبي الله سليمان لهم بالدخول في دين الله.

[٢٢] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٨٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ففي حين اختار قوم معاوية -بقيادة والد معاوية نفسه (أبو سفيان بن حرب)- محاربة النبي (ص)، ودعوا الله أن يُبيدهم إنْ كانت دعوة محمد حقًا، اتَّخذ أهل اليمن -بقيادة الملكة بلقيس- قرارًا دبلوماسيًا هو الحوار والتفاوض مع الملك سليمان، ثم الدخول في دين الله بعدما تبيَّن لهم أنه الحق.

بنى الرجل اليمني حجته بواسطة قياس يقارن سلوك قومَين تعرَّضا لموقف مشابه، أحد القومين يحكمهم رجل، والثاني تحكمهم امرأة. وجاء رد فعل القوم الذين حكمهم رجل عدوانيًا، مدمِّرًا للذات، ومفتقدًا للبصيرة، ومؤديًا إلى الهزيمة، ومعزِّزًا للكفر. في حين جاء رد فعل القوم الذين حكمتهم امرأةٌ هادئًا، وعقلانيًا، وسلميًا، وفاتحًا الباب أمام الإيمان.

تكوَّن القياس السابق من مقدمات تتشابه في كل شيء عدا طبيعة من يحكُم، ليستنتج المتابع أن النتائج المتباينة نتجت عن المتغير الوحيد المختلف، وهو نوع الحاكم من حيث الذكورة والأنوثة. وترك الرجل اليمني للمتلقين الوصول إلى النتيجة النهائية التي أراد الوصول إليها، وهي أن قومَه لم يكونوا جهلاء حين ولَّوا عليهم امرأة. فهذه المرأة كانت الأحكم والأذكى والأقدر على حماية قومها والدفاع عن مصالحهم، مقارنة بقوم معاوية. ويتبين من ذلك أن عبارته الأولى "أجهلُ من قومي قومَك" لم يكن هدفها إثبات الجهل على قومه، بل نفيه. وأنها كانت جملة استدراجية، تُمهد للنتيجة الدامغة التي سترتب على حججه، وهي أن قومه حكماء، والجهلاء قوم آخرون.

نلحظ في هذه الرواية غياب رد معاوية بن أبي سفيان على الرجل اليمني. ويبدو هذا مفهومًا، بالنظر إلى أن القصة مدرَجة ضمن "الأجوبة المسكتة"، أي التي لا يجد المتكلم ما يقوله ردًا على جواب مخاطَبه. ويزداد تقديرنا لقوة استجابة الرجل اليمني في مقاومة خطاب التمييز الذي أنتجه معاوية بالنظر إلى أن هذه الاستجابة تذكِّر معاوية بأسوأ ما يمكن تذكيره به، وهو عداء قومه، ولا سيما عائلته الصغرى، للنبي (ﷺ)، ومحاربتهم له.

خامسا: الاستجابة البليغة لخطاب التنمر ضد ذوي الاحتياجات الخاصة

تعرَّض ذوو الاحتياجات الخاصة إلى خطابات تنمر وتمييز وتحقير وكراهية في ثقافات وأزمنة مختلفة. وقد طوَّرت المجتمعات المتقدمة وسائل تكبح هذه الخطابات، وتتكون من مزيج من القوانين الحامية، والممارسات التربوية والإعلامية المُرشدة. وفي

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

زمن سابق على توافر هذه الحماية، لعبت الاستجابة البليغة دورًا مهمًا في حمايتهم، على نحو ما يتضح في المثال الذي يقدمه هذا الحوار بين أحد ملوك فارس وشخصٍ أعور؛ إذ يروي صاحب الأجوبة المسكتة أنه:

٧. "كان بعض الأكاسرة راكبًا فلقيه أعور فحبسه. ثم رجع فخلَّاه[٢٣]، فقال له حبستَني؟ قال: تشاءمتُ بك. قال: أنتَ والله أشأم؛ خرجتَ من قصرك فلقيتني فلم ترَ إلا خيرًا، وخرجتُ من منزلي فلقيتُك فحبستني. فلم يَعُد بعدها"[٢٤].

تتضمن القصة حوارًا بين واحد من الأكاسرة الذين حكموا بلاد فارس وشخصٍ أعور إثر قيام الأول بسجن الثاني؛ لأنه تشاءم من رؤيته وهو يجول خارج قصره. وتُظهر القصة معتقدًا شعبيًا رائجًا هو التشاؤم من رؤية المبصرين بعين واحدة. وهو معتقد ينتج عنه تنمر خطابي، وأذًى مادي. فقد تعرَّض الرجل الذي لقيه كسرى للسجن المادي ثم الأذى الخطابي بواسطة عبارة "تشاءمتُ بك" التي قالها كسرى للرجل تبريرًا لسجنه.

كانت استجابة الرجل لكسرى بليغة؛ فقد قاومت بفعالية خطاب التنمر والتحقير الذي تعرَّض له بلا ذنب، موظِّفةً استراتيجيتين فعّالتين لمقاومة خطاب التنمر والتحقير. الأولى هي ردّ التهمة على مُطلِقها في عبارة "أنتَ، والله، أشأم". ونلاحظ أن الرجل لم يستعمل في هذه العبارة الموجزة صيغ التوقير المتعارف عليها في مخاطَبة الملوك، فاختار ضمير "أنت" الذي يوحي بعلاقة الندية والمساواة. كما أنه أكد قوله بالقسم الجازم، واستعمل صيغة مقارنة تفضيلية هي "أشأم"، وصاغ دعواه بأن كسرى أشأم منه في شكل جملة اسميَّة تقريرية، ليتجاوز معناها حدود الزمان والمكان. وهي اختيارات أسلوبية قصد منها الوصول بالقول إلى أقصى درجاته تأكيده وإطلاقه.

الاستراتيجية الثانية حجاجية تفسِّر دعوى الرجل بأن كسرى أشأم منه، وقد استعمل حجة عقلانية واقعية هي الخبرة المشتركة بين الرجل وكسرى، مقارِنًا حظَّ أحدهما من لقاء الآخر، موضِّحًا أن كسرى لقي الرجل فنعم بيوم طيب، في حين لقي الرجلُ كسرى

[٢٣] - خلّاه؛ أي أطلق سراحه.
[٢٤] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٣٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

فقضى يومه في السجن. وهي حجة قاطعة، تنقل تهمة الشؤم من الرجل المبصر بعين واحدة إلى كسرى المبصر بعينين، فتُخلخل المعتقد السائد على جميع المبصرين بعين واحدة.

تستمد الاستجابة السابقة قوتها من واقعية الحجج التي تستند إليها ومنطقيتها من ناحية، وقابلية انطباقها على حالات أخرى مشابهة من ناحية أخرى. وتؤلّف تقويضًا لخطاب التنمر ضد ذوي الاحتياجات الخاصة الذي يربطهم بالشؤم. وقد أدرك كسرى قوة حجة الرجل المبتَلَى بفقد إحدى عينيه "فلم يعُد بعدها" بحسب راوي القصة، وهو ما يشير إلى إقلاعه كليةً عن ممارسة خطاب التنمر والتحقير ضد المبتلين في حاسة من حواس جسدهم.

سادسا: الاستجابة البليغة لخطاب التمييز في الألقاب

تعدّ المجتمعات العربية عالية التفاوت في السلطة، وفقًا لمعيار هوفستد[٢٥]. وتتأثر أشكال التواصل اليومي بين البشر بهذا المعيار الذي يحدد المسافة بين من يوجدون في أعلى سلم السلطة، ومن يقبعون في أسفله. وتتجلى علاقات السلطة في علامات لغوية وغير لغوية منها صيغ التحية والألقاب وأشكال التوقير اللفظي وغيرها[٢٦].

من الطبيعي أن يحرص حائزو السلطة على ترسيخ تفاوتها بواسطة إعادة إنتاج علامات لغوية وغير لغوية داعمة، وترسيخ شعائر وطقوس في مخاطبتِهم، وتحويلها إلى "آداب" مرعية. من ذلك الانحناء عند التسليم عليهم، ومخاطبتهم بالألقاب التبجيلية، وخفض الصوت في حضورهم، واختيار الصيغ اللغوية الدالة على الخضوع، وعدم إيلائهم الظهور عند انقضاء الكلام، وغيرها. وترسّخ هذه الممارسات اللغوية أشكالا من

---

[٢٥] - الدول العربية التي قيس فيها هذا المعيار هي مصر والسعودية والعراق والكويت ولبنان والإمارات العربية المتحدة وليبيا، وهي أعلى الدول في هذا المعيار في العالم بعد ماليزيا وجواتيمالا وبنما والفيليبين والمكسيك وفنزويلا والصين، وذلك بمعدل ٨٠ من ١٠٠ في سلم تفاوت السلطة. وتجدر الإشارة إلى أن معظم الدول الأوروبية تقع تحت معدل الخمسين ينظر: https://bit.ly/32wUrOO اطلع عليه في: ٢٠٢٢/٩/١٩.

[٢٦] - قمتُ برصد أثر تفاوت السلطة على التواصل بين العرب والأفراد مختلفي الثقافات في: عماد عبد اللطيف، **البلاغة والتواصل عبر الثقافات**، (الطبعة الثانية) (العراق: دار شهريار، ٢٠١٨).

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

عدم المساواة الخطابية التي تُدرَك بفضل النظر إليها بأنها طبيعية. غير أنّ التراث العربي قدَّم لنا استجابات بليغة مقاومة لهذا الشكل من الظلم الخطابي؛ أعني التمييز في صيغ النداء بين البشر المتساوين. ويتضمن هذا المقتطف حوارًا مقتضبًا بين خليفة عباسي مشهور هو المأمون، ورجل من المتصوّفة غير مذكور الاسم. والقصة كما أوردها صاحب الأجوبة المسكتة هي:

٨. "صاح صوفي بالمأمون: يا عبد الله. قال المأمون: تدعوني باسمي؟! قال: يُدعى الله، عز وجل، باسمه، ولا تُدْعى باسمك؟!"[٢٧].

يكشف الحوار السابق عن موقفين متعارضين من مسألة تفاوت السلطة. الأول يقدمه الصوفي الذي يرى أن البشر سواسية، وأن من حقه أن ينادي الخليفة باسمه. والثاني هو موقف المأمون نفسه الذي يستنكر "تجرؤ" الصوفي عليه، بواسطة إسقاط التعبيرات الدالة على تفاوت السلطة والمكانة، ومخاطبته كما يخاطَب العامة من البشر. وقد استعمل المأمون للتعبير عن هذا الاستنكار صيغة تساؤل بلاغي تهديدي استنكاري دون استعمال أداة استفهام.

جاء رد الصوفي في صيغة تركيبية مماثلة للصيغة التي استعملها المأمون. فقد استعمل الجملة المضارعة التي تؤدي معنى الاستفهام الاستنكاري دون استعمال أداة استفهام، واستعمل المفردة الدلالية نفسها التي استعملها المأمون "يُدعى" دون تغيير. ويبدو توظيف الصوفي لمفردات المأمون وتراكيبه تعبيرًا عن ترسيخ المساواة الرمزية بينهما، على مستوى الاستعمال اللغوي. لكن عبارة الصوفي لم تُنعتْ بأنها بليغة بفضل هذه المحاكاة التركيبية والدلالية على أهميتها، بل بفضل الحجة القوية الداعمة لسلوك الصوفي. لقد رد الصوفي على استنكار المأمون مخاطبة الصوفي له دون ألقاب بأن المسلمين يخاطبون الله دون ألقاب، مستعملين اسم الله في مخاطبة الله، منتجًا صيغة استنكار لاذع من استنكار المأمون نفسه أن يُدعى باسمه. وبهذه الحجة غير القابلة للتفنيد يقلب الصوفي ميزان القوى بينه وبين المأمون، فهو يرسِّخ سلوك المساواة في التخاطب، ويسخر بشكل خفي من التمييز بين البشر في المخاطَبة استنادًا إلى تفاوت سلطتهم.

[٢٧] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٣٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

سابعا: الاستجابة البليغة لخطاب قهر اليافعين

يتعرض اليافعون من الشباب لخطابات تقلِّل من شأنهم في الفضاءات العمومية. وقد يُفرَض عليهم الصمت، ولا سيما في حضرة من هم أكبر منهم. ويبدو هذا طبيعيًا في مجتمعات تقليدية تُعطي لكبار السن مكانة رمزية ومادية مرموقة. وبالطبع فإن العمل بتقاليد المجتمع في التواصل البيْشخصي يُعزز من الترابط المجتمعي. لكن انتقال خصائص التواصل البيْشخصي إلى التواصل العمومي قد يسبب تشوهات في التواصل. فنقل تقاليد صمت اليافعين في مجالس الكبار إلى فضاء القضاء أو الفضاء التعليمي أو الفضاء السياسي مثلا قد يؤدي إلى ضياع الحقوق، وغلبة الجهل، وفرض القهر. وسوف أضرب مثالا لخطاب قهر اليافعين لتوضيح هذه الدعوى، وأبرهن بأن الاستجابة المثلى لهذا الخطاب تهدف إلى تأسيس قواعد للتواصل الحر الخالي من القهر. وهذا المثال هو قصة شهيرة لإياس بن معاوية المزني (ت. ١٢٢ هـ)، وهو فتى صغير.

٩."يقول ابن أبي عون "قدَّم إياس بن معاوية (وهو غلام) خصمًا له إلى قاضي الشام، فقال له القاضي: "أما تستحي؟" أتُقدِّم شيخًا كبيرًا؟[٢٨] قال: الحق أكبر منه. قال: اسكت. قال: فمن ينطق بحجتي؟ قال: لا أظنك تقول حقًا حتى تقوم. قال: لا إله إلا الله. فدخل القاضي على [الخليفة] عبد الملك فأخبره خبره، فقال: اقض حاجتَه الساعة، وأخرجه من الشام لئلا يُفسِد (الناس علينا)"[٢٩].

يحتوي حوار قاضي الشام مع الفتى إياس نموذجًا للاستجابة البليغة المقاومة لخطاب يمارس أشكالا متنوعة من إساءة السلطة. ففي مفتتح الحوار توبيخ من القاضي للفتى لقيامه بمقاضاة شيخ كبير السن. وهذا أول أشكال إساءة استعمال السلطة، فوظيفة القاضي الفصل بين المتنازعين، وإتاحة المجال لكل صاحب حق أن يدافع عن حقه. ومن ثمَّ، فإن توبيخ القاضي لإياس يتعارض مع مهمات وظيفته. ومن ناحية أخرى، فإن تقريعه للفتى استنادًا إلى فارق السن بين المدّعِي (الفتى) والمدَّعَى عليه (الشيخ)، يتعارض بوضوح مع مبدأ المساواة أمام القانون، ويتسبب في ضياع الحقوق. لذا كان ردّ

---

[٢٨]- ما بين القوسين الهلاليين مأخوذ من رواية أخرى للقصة أوردها ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق. أُنظر: ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، مج. ٥، ص. ٩٢. وما بين الأقواس المعقوفة من الباحث.

[٢٩] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ٥٥، وفي رواية ابن عون "لئلا يُفسد أهلها".

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

إياس على هذا السعي لإغلاق باب التقاضي أمامه ذكيًا قاطعًا. فقد ذكر أن (الحق أكبر)، مُذكِّرًا القاضي بالمسؤولية التي تفرضها مهنته وهي إكبار الحق، وإعلاؤه على ما سواه. فلما لم يجد القاضي ردًا مقنعًا على رد إياس، لجأ إلى الإساءة الثانية للسلطة والخطاب، والمتمثلة في فرض الصمت القهري.

لقد اختار قاضي الشام صيغة صارمة لسلب الحق في الكلام هي "اصمت". وهي صيغة أمر استعلائي، تهدف إلى إبراز سلطته على الفتى بوصفه صاحب الحق في منح إمكان الكلام وحجبها، وفرض الصمت على الفتى الذي يبدو الحوار معه غير مأمون العاقبة. لكن الصيغة تكشف عن ضعف موقف القاضي؛ إذ لم يرد على حجة الفتى، ولجأ –هربًا من الردِّ- إلى إسكاته. ولم يكن غريبًا أن يُنتِج الفتى استجابة بليغة صارمة تّجاه محاولة فرض الصمت عليه. فقد أعاد القاضي إلى واقع ما تفرضه وظيفة القاضي من الاستماع إلى حجج المتنازِعين، قائلا في صيغة استفهامية استنكارية: "فمَنْ ينطق بحجتي؟!". وهي استجابة بليغة لكونها تمزج بين الاستفسار والاستنكار، وتحتوي حجة عقلانية هي تعارض الأمر بالصمت مع الحق في التكلم دفاعًا عن الحق أمام القاضي. ولثاني مرة يهرب القاضي من حُجَة الفتى، ولا يرد على سؤاله، ولا يواجه استنكاره، بل يُنتج شكلا ثالثًا من أشكال إساءة استعمال السلطة والخطاب هي التشهير بالفتى والسعي إلى تشويه شخصيته، بواسطة وصمِه بأنه كذَّاب قائلا: " لا أظنك تقول حقًا حتى تقوم".

يعدّ التشهير بالشخص وتشويه شخصيته أداة شائعة لإنتاج الخطابات التحقيرية والمتلاعبة. وقد اختار قاضي دمشق الهرب من مواجهة حجة الفتى إلى توجيه السهام إلى شخص الفتى، متهمًا إياه بالكذب من دون دليل. وقد أنتَج الفتى الاستجابة الأبلغ في هذا الحوار ردًا على خطاب التشويه، فلم يزد على أن قال: لا إله إلا الله. وهي قول لا يمكن أن يُنعتَ بالكذب، وإلا أوقع من يقول بذلك في مأزق الخروج عن الملة، وهو قاضي المسلمين. وقد أنتجتْ عبارة الفتى أثرها الماحق، فلم ينطق القاضي بحرف بعدها. لقد أدرك القاضي أن رد الفتى بقول "لا إله إلا الله"، يُقرُّ حقيقتين كلاهما مُرُّ. الأولى أن القاضي كذب، لأنه قال إن الفتى لن يقول حقًا حتى يقوم. وقد قال الفتى حقًا لا يمكن ردُّه. والثانية أن الفتى صادق، لأنه نطق عن حق. وبذلك ترتدُ سهام التشهير والتشويه إلى القاضي نفسه الذي يبدو كاذبًا متعجلا مستبدًا غير مدرك لمهمات وظيفته. وقد أدرك القاضي أن مواصلة الحوار لن تؤدي إلا إلى مزيد من الخسارات بفعل استجابات الفتى

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

البليغة. لذا لم يكن منه إلا أن ترك مجلسه، وذهب مباشرة إلى الخليفة ليتلقى العون منه.

إن ما يدهش أكثر في هذه الحكاية هو رد فعل الملك عبد الملك بن مروان. فقد أمر القاضي بقضاء حاجة الفتى فورًا، واستعمل صيغة أمر استعلائية غير قابلة للنقاش، هي "اقض حاجته"، واستعمل ظرف زمان دال على التعجيل هو "الساعة". كما أمر قاضيه بإخراج الفتى من الشام، مبررًا قراره بخشية أن يُفسد الفتى أهل الشام على الخليفة وأعوانه. لقد كانت قوة استجابة الفتى البليغة عارمة حد أن الخليفة لم يأمر قاضيه بالنظر العادل في القضية، بل أمره بأن يلبي ما يطلبه الفتى من القاضي. وكان إدراكه لخطورة هذا النمط من الاستجابات البليغة على البشر العاديين وراء سعيه للتعجيل بإرجاع إياس إلى بلده البصرة. وما عبارة "لئلا يفسد أهل الشام" التي ذكرها عبد الملك إلا صوغا ملكيا مهذبا لمخاوفه من أن يحرض هذا الفتى أهل الشام على مساءلة السلطة التي تحكمهم، ويشجعهم بالقدوة التي يقدمها لهم على مقاومة إساءات استعمال السلطة والخطاب التي يتعرضون لها، مثلما قاوم إساءات القاضي.

ثامنا: الاستجابة الرشيدة لخطاب النفاق

النفاق سلوك شائع في مجتمعات القهر والاستبداد، ويتخذه البعض أداة للتقرب إلى ذوي السلطة والجاه والثروة والمكانة بهدف استجلاب خير أو دفع أذى. ويُنجَز النفاق بأساليب خطابية مثل المبالغة في مدح الشخص، أو تحقير خصومه ومنافسيه، وأساليب غير خطابية متنوعة بحسب الخصوصيات الثقافية والمجتمعية. ويمكن أن نعرِّف خطاب النفاق بأنه العلامات اللغوية وغير اللغوية التي يستعملها شخص أو جماعة عن قصد، بهدف بناء صورة غير حقيقية للمخاطَب تمكِّنهم من تحقيق مصالح خاصة بهم. ويشتمل خطاب النفاق على إنتاج عبارات أو القيام بأفعال تصنع إدراكًا زائفًا للمخاطَب بشأن شخصه أو أفعاله. ويكمن الفرق بين النفاق والتمثيل غير الدقيق للواقع في بُعد القصدية؛ فالمنافق يقصد إنتاج تمثيلات مشوَّهة للواقع، خدمةً لمصالحه الشخصية. ولعل هذا ما يجعل من العسير الحكم على قول ما بأنه نفاق. ولنتخيل أن مرؤوسًا يقول لرئيسه في العمل: "أنت أعظم رؤسائي، وأكثرهم حكمة، وفطنة، وبراعة، وإتقانًا، ونجاحًا...إلى آخره". معظم الناس سيدركون بأن هذه الكلمات نفاق؛ بسبب طبيعة العلاقة بين الرئيس والمرؤوس، وتخمينهم للدافع الحقيقي وراء قول هذه العبارات، وتقديرهم لخطئها. لكن الشخص نفسه قد يدافع عن نفسه بأنه لم يسع لتحقيق أي منفعة من عباراته، وأنها تتضمن

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وصفًا دقيقًا للواقع كما يراه. لذا فإن وصف تلفظ ما بأنه نفاق قد يكون أمرًا خلافيًا. لكن الحكم على الاستجابة البليغة لخطاب النفاق قد لا يكون كذلك. وسأضرب مثالا موجَزًا للاستجابة البليغة لخطاب النفاق، على أمل تخصيص بحث كامل له في المستقبل.

١٠."يروي ابن أبي عون أن رجلا نادى عمر بن عبد العزيز: يا خليفة الله. قال (عمر): ويحك، فهلا قلتَ يا خليفة سليمان؟"[٣٠].

يقدم الحوار السابق مثالا لخطاب قد يُدرَك بوصفه نفاقًا؛ فالرجل ربما أراد التقرب من عُمر بن عبد العزيز بواسطة اتباع الطريقة الأكثر شيوعًا وهي المبالغة في الصفات والخصال والأفعال. فبدلا من استعمال عبارة "خليفة المسلمين" في نداء الخليفة عمر، ناداه "خليفة الله" على سبيل المبالغة في المدح. فما كان من عُمر بن عبد العزيز إلا أن قدّم استجابة بليغة لهذه المبالغة، مستعملا تعبيرًا دالاً على مزيج من الاستهجان والتحذير والوعيد هو "ويحك". متبعًا هذه الصيغة الاستنكارية بأداة ترغيب للرجل في التوقف عن هذا القول، هي "هلَّا"، ثمَّ تلقين للنداء البديل وهو "خليفة سليمان بن عبد الملك".

كانت استجابة عمر بن عبد العزيز متعددة الخطوات؛ فقد بدأت بالاستنكار، ثم الحض على التغيير، ثم طرح البديل. ومن الجدير بالملاحظة أن البديل الذي اقترحه عمر يخالف استراتيجية المبالغة في التفخيم التي استعملها الرجل. فعمر يواجه خطاب النفاق بخطاب تواضع جذري. فلم يقل للرجل: "هلَّا قلت: خليفة المسلمين"، بل أضاف الخلافة إلى الخليفة السابق عليه وهو سليمان بن عبد الملك، تقليلا من مكانة نفسه، وحضًا على تجنب المبالغة في الصفات.

يزداد تقديرنا لعظمة استجابة عُمر لخطاب النفاق بالنظرة إلى ندرة مثل هذا الاستجابة في التراث العربي. وفي الحقيقة فإن النظرية التي استقر عليها خلفاء بني أمية الذين ينتسب إليهم عمر بن العزيز لدعم ملكهم هي "أن الله اختارهم للخلافة وأتاهم الملك، وأنهم يحكمون بإرادته، ويتصرفون بمشيئته. وأحاطوا خلافتهم بهالة من القداسة، وأسبغوا على أنفسهم كثيرًا من الألقاب الدينية، فقد كان معاوية في نظر أنصاره "خليفة

[٣٠] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ١٠٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الله على المسلمين"[٣١].

تاسعا: الاستجابة البليغة للعنصرية ضد السود والعبيد

عاش العالم زمنًا طويلا في وحل العنصرية ضد السود والملوَّنِين. وما زالت الخطابات التي تميز بين البشر استنادًا إلى لون بشرتهم مرضًا خطرًا من أمراض الخطاب. وتحارب المجتمعاتُ في وقتنا الراهن الخطاب العنصري المستند إلى لون البشر بقوة القانون، سعيًا إلى الحفاظ على الانسجام المجتمعي وقيم المساواة والعدالة. لكن المقاومة الخطابية للعنصرية كانت لزمن طويل أداة المقاومة الوحيدة لهذا الخطاب الكريه، ولا سيما في زمن العبودية، قبل أن يتكوّن وعي إنساني بأن العنصرية جريمة يوجب ارتكابها ردعًا قانونيًا. وقد تعددت أشكال هذه المقاومة الخطابية، مثل الترويج لخطاب إنساني يؤكد المساواة بين البشر. كما نرى في الخطاب الديني للإسلام الذي يرسخ فكرة أنه لا فضل لإنسان على آخر بناءً على العرق أو النوع أو اللون. كما لعبت الاستجابات المضادة التي أنتجها أشخاص تعرضوا للتمييز العنصري دورًا مهمًا في مقاومة العنصرية، على نحو ما نرى في هذا المثال:

١١. يروي ابن أبي عون عن الجاحظ قوله: "قال شدَّاد الحارثي: قلتُ لأمَة سوداء بالبادية: لمن أنتِ يا سوداء؟ قالت: لسيد الحضر يا أصلع. قلتُ: أوَلستِ سوداء؟ قالت: أوَلستَ أصلع؟ قلتُ لها: فما أغضبكِ من الحق؟ قالت: الذي أغضبك منه. لا تسبُ حتَّى تُرهِب، ولأن تتركه أصوب"[٣٢].

تقدم القصة السابقة حوارًا بين رجل حُر أبيض، وامرأة عبدة سوداء، يخاطِب فيه الرجل المرأة خطابًا تحقيريًا عنصريًا، مناديًا لها بلوْنِها: يا سوداء، ملمّحًا إلى أن هيئتها توحي بأنها عبدة بسؤاله عن مالكها: "لمَن أنتِ؟". فما كان من المرأة إلا أن ردَّت عليه ببعض ما يوجعه، فنادته (يا أصلع)، مركّزة على صفة جسمانية فيهِ هي الصلع، وهو شكل من التنمر المضاد للخطاب العنصري الذي وجّهه إليها الرجل.

يكشف رد الرجل على المرأة عن استنكاره لردها عليه بعبارة "لسيد الحضر يا

---

[٣١] - عبد الفتاح إمام، **الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي** (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٤)، ص. ١٦٨.

[٣٢] - ابن أبي عون، ١٩٩٦، ص. ١٦٧.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أصلع". وكأنه يتوقع أن تتلقى المرأة خطابه التحقيري دون مساءلة أو ردّ. وعبارة "أولستِ بسوداء؟" تُخفي ما يمارسه الخطاب من تحقير وعنصرية، من خلال حجة ضمنية هي أن خطابه خالٍ من الإساءة لأنه مطابق للواقع؛ فالمرأة سوداء، لذلك ناداها بقوله "يا سوداء"! وقد كانت الاستجابة البليغة للمرأة موجِعة. فقد أعادت توجيه نصل الحجة إلى صاحبها، قائلة له: "أولستَ أصلع؟!". بما يعني أن خطابها -بمنطق الرجل نفسه- خالٍ من الإساءة، لأنه يوافق الواقع.

وقد واصل الرجل استراتيجية إنكار الإساءة، موجهًا هذه المرة سؤاله (فما أغضبك من الحق؟). لتقوم المرأة بإعادة توجيه نصل الحجة إلى صاحبها قائلة "الذي أغضبكَ منه"، ثم تتبع جوابها المسكِت بعبارة ختامية تكشف عن فهمها لما يسعى الرجل إلى إنجازه من خطاب ظاهِرُه الحقيقة وباطِنُه السبّ والتحقير. وقد قدمتْ عباراتها الأخيرة في أسلوب أمر توجيهي يحمل في باطنه دلالة استعلائها عليه، وكأنه جلس منها مجلس المتعلم التلميذ، قائلة: لا تسب حتى تُرهِب، ولأَنْ تتركه أصوب. فهي تكشف الغطاء عن أن دعوته لها بالسوداء والعبدة سبٌّ لها. وتنصح الرجل بأن يتخلى عن سب الناس؛ لأنه "أصوب". فهي تضع نفسها موضع العارف الناصح، وتضع الرجل موضع الجاهل المتهور. وفي هذا شكل من أشكال الانتقام الضمني بالخطاب من السلطة الغاشمة التي مارسها رجل أبيض حر على امرأة عبدة سوداء!

خاتمة:

فحصت هذه المقالة كيفية مقاومة المقهورين والمهمشين للخطابات السلطوية التي يتعرضون لها، من خلال إنتاج استجابات بليغة. وحلَّلت عينة مختارة من الاستجابات البليغة لخطابات القهر والتمييز والعنصرية والتحقير والتنمر وغيرها من أشكال الظلم، مأخوذة من كتابين هما **الأجوبة المسكتة** لابن أبي عون و**الهفوات النادرة** لابن الصابئ.

نخلص من التحليلات التفصيلية للاستجابات البليغة السابقة إلى نتائج عامة منها:

أولا؛ تتمتع الشخصيات المنتِجة للخطابات السلطوية بسلطة وصلاحيات أعلى من الشخصيات الموجَّه إليها هذه الخطابات. فالخليفة (مثل معاوية بن أبي سفيان، وهشام بن

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

عبد الملك، والمأمون بن هارون الرشيد)، والإمبراطور (مثل كسرى)، والوالي (مثل الحجاج بن يوسف)، والقاضي (مثل قاضي عبد الملك)، والسيِّد (مثل عبد الله بن عباس، وشداد الحارثي) يوجهون خطاباتهم التمييزية والتحقيرية والعنصرية إلى مسجونين وأسرى ونساء وأطفال وذوي احتياجات خاصة ومتصوفة، على نحو ما رأينا في النصوص المدروسة. ويكشف هذا التفاوت الهائل في القوة بين المتكلِّمين والمخاطَبين عن سوء استعمال أصحاب السلطة للخطاب. كما يكشف كذلك، وهذا هو الأهم، عن أن البشر الأقل سلطة يمكنهم أن يقْلِبُوا علاقات السلطة جذريًا إن هم أحسنوا توظيف قوة الخطاب المتاحة لديهم. فالاستجابة البليغة تسهم في اعتدال موازين القوة إن أحسن المهمشون والمستضعفون إنتاجها.

ثانيا؛ تشترك الاستجابات البليغة السابقة في سمات؛ منها أنها جميعًا استجابات عقلانية، تستند إلى محاجَّة رصينة. كما أنها موجَزة، مباشِرة، غير مشغولة بأن يكون القول جميلا قدر انشغالها بأن يكون القول فعالا. كذلك، فإنها تشترك في تجاهلها لبُعد مهم من أبعاد المقام التواصلي هو بُعد تفاوت السلطة بين المتكلم والمخاطَب. فهي تتجاهل أعراف التواصل وضوابطه التي تفرضها المجتمعات السلطوية على مخاطَبة العبد للسيد، والسجين للحاكم، والفرد العادي للإمبراطور، والصبي للشيخ، ولا سيما الصمت، والخضوع، وعدم المخالفة. وبدلا من ذلك، تنحاز إلى ممارسة حرية القول، والصمود، والكرامة، وبلاغة التعبير عن الذات. وأخيرًا فإن الاستجابات المختلفة السابقة تشترك في أنها تمنح منجزيها قوة استثنائية تمكنهم من قلب موازين القوة في شكل من أشكال الثأر بالكلمات.

يحتاج هذا البحث إلى بحوث أخرى تفحص متن التراث البلاغي من منظور بلاغة الجمهور، واستكشاف الاستجابات البليغة وغير البليغة للظلم، كما تتجلى في كتب التاريخ والأدب وغيرها. وآمل أن يؤدي تراكم البحوث في هذا المجال إلى رسم خريطة

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

للاستجابات العربية للظلم، تُمكِّن الباحثين من مقارنة أساليب المجتمعات المختلفة في الأزمان المختلفة في استعمال بلاغة الجمهور بوصفها أداة لمقاومة الظلم.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

المراجع:

- ابن منظور، محمد بن مكرم. **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق مأمون الصاغرجي وأحمد حمامي ورياض مراد. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤.
- أبي الحسن محمد بن هلال الصابئ، غرس النعمة. **الهفوات النادرة**، تحقيق صالح الأشتر. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٧.
- إمام، عبد الفتاح. **الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي**. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٤.
- ابن أبي عون، أحمد إبراهيم بن محمد. **الأجوبة المسكتة**، تحقيق مي أحمد يوسف. القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٦.
- ذويب، لطيفة وإبراهيم إيدير. "المقاصد التداولية في الخطابات الساخرة: كتاب الأجوبة المسكتة لابن أبي عون أنموذجًا". **رسالة ماجستير غير منشورة**. الجزائر: جامعة قاصدي مرباح/ورقلة، ٢٠١٩.
- عبد الحكيم، منصور. **الحجاج بن يوسف الثقفي: طاغية بني أمية**. القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩.
- عبد اللطيف، عماد. "بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته". ضمن **السلطة ودور المثقف**، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥، صص.٧-٣٦.
- ـــــــــــــــ. "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ضمن صلاح الحاوي وعبد الوهاب الصديقي، **بلاغة الجمهور: مفاهيم وتطبيقات** (العراق: دار شهريار، ٢٠١٧)، صص. (١٥-٤٥)، صص. ٢٠-٢١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

- ـــــــــــــــــ. **البلاغة والتواصل عبر الثقافات**. الطبعة الثانية. العراق: دار شهريار، ٢٠١٨.
- ـــــــــــــــــ."بلاغة الجمهور والمعارف النقدية: دراسة في خصائص النقد من الفضيلة إلى الاستجابة". **مجلة العلامة**، مج. ٦، ع. ١٣، ٢٠٢١، صص. ٩-٣٠.
- عبيد، نهضة ومحمد عبد. "إيقاع التكرار أسلوبيًا في الأجوبة المسكتة في كتاب ابن أبي عون". **مجلة مركز دراسات الدوحة**، ع. ٥٩، ٢٠٢٠، صص. ٣٤٣-٣٨٢.
- علوي، كريم. "الأجوبة المسكتة: دراسة في ضوء اللسانيات التداولية"، **مجلة كلية التربية للبنات**، مج. ٣١، ع. ١، ٢٠٢٠، صص. ١٣٥-١٥١.
- فاعور، منيرة. "بلاغة الأجوبة المسكتة: الأسلوب الحكيم نموذجًا"، **مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية**، مج. ٣٠، ع. ٣-٤، ٢٠١٤، صص. ١١٣–١٣٩.
- المقداد، محمود. "الأجوبة المسكتة في العصر الأموي: محاولة تنظير وتأصيل لنوع أدبي نثري في مرحلة التأسيس"، **التراث العربي**، ع. ١٣٨-١٣٩، ٢٠١٥، صص. ٢٧-٤٨.
- المقراني، إيهاب. "آليات الخطاب الحجاجي في الأجوبة المسكتة: باب الجوابات الهزلية بين النص والنسق"، **مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد**، ع. ١٥، ٢٠٢٠، صص. ١٣-٩٧.
- الموسوي، محمد مهدي. **موسوعة عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن**. قُمْ: مركز الأبحاث العقائدية، ٢٠٠٧.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898